سيف الدولة الحمداني أديباً

أ.د. سعود عبد الجابر*

The Abstract:

Alebo had witnessed a brilliant scientific and literary renaissance during the era of Sayf Al-Dawlah Al-Hamadani. The Hamadani emir's palace was the destination of the men-of-letters, the poets and the scientists who came from the various Islamic regions. The most famous of those were Abu-Al-Tayeb Al-Mtanabi, Abu-Firas Al-Hamadani, Al-Sounobari, KHashajim and Al-Saryy' Al-Reffa', among others.

The prince, himself, was a man-of-letter, a critic and a poet. In addition, he protected the homeland and confronted the Romans' invasion in the most embarrassing historical eras. He was the rescuer hero who lead the Moslems from victory to another.

This man-of-letter prince has built his supporting glory on two basic factors: facing the Roman State and taking care of science, literature and encouraging the scientists and the men-of-letter.

سيف الدولة الحمداني علي بن أبي الهيجاء بطل من أبطال الأمة برز في القرن الرابع الهجري عندما بدأت أطماع الدولة البيزنطية تتجه نحو الأراضي الشرقية للدولة العباسية طامعة في الاستيلاء عليها وضمها، ومما شجعها على ذلك ضعف دولة بني العباس وتمزقها إلى دويلات ضعيفة وسيطرة القادة من الأتراك على مقاليد الأمور في الحاضرة العباسية حيث وصل بهم الأمر في بداية القرن الرابع الهجري إلى التدخل في تعيين الخلفاء وقتلهم إذا اقتضى الأمر فساعد ذلك على ضعف السلطة المركزية وتمزيق الدولة إلى ولايات مستقلة تخضع

* جامعة الشرق الأوسط – كلية الآداب والعلوم عمان – الأردن

للخليفة العباسي بالاسم فقط. ففي هذه الظروف الحرجة التي كانت تمر بها الدولة شاءت إرادة الله عز وجل أن يبرز بطل من أبطال الأمة أسس إمارة في حلب في مستهل القرن الرابع الهجري وتصدى للخطر البيزنطي، فذاد عن الوطن وحمى الديار وتصدى للزحف الرومي في أحرج اللحظات التاريخية التي شغل فيها الحكام بالتطاحن على الملك. فكان سيف الدولة البطل المنقذ الذي قاد المسلمين من نصر إلى نصر. وكان الشعر على موعد مع هذا الأمير فغنى أعذب ألحانه وخلد مآثره وسيرته وبطولاته وتضحياته.

ولقد بنى الأمير الحمداني دعائم مجده على عاملين أساسيين، هما: مقارعة الدولة البيزنطية، والعناية بالعلم والأدب وتشجيع العلماء والأدباء، حيث كان حامي الثغور وراعي العلوم والفنون.

وكان عندما يلتقط أنفاسه من شدة القتال يجمع إليه العلماء والشعراء والأدباء ذاكراً فضلهم، مشيداً بقدرهم، مثيراً لعبقرياتهم مستمعاً لقصائد الشعراء، مصغياً لآراء الأدباء، مبدياً وجهات نظره فيما يحدث أمامه من مساجلات.

ومن وحي هذا المجد أفادت حلب طوق الخلد، ونفثت نهضة علمية وأدبية لم تشهد لها نظيراً من قبل، وحظيت بكوكبة لامعة من صفوة علماء وأدباء وشعراء ذلك العصر.

حياته:

ولد الأمير الحمداني علي بن أبي الهيجاء بن عبدالله بن حمدون بن الحارث في ميافارقين([1]) سنة ثلاث وثلاثمائة. وقيل سنة واحدة وثلاثمائة. وكان أبوه أبو الهيجاء رجلاً عرف بالشجاعة وولي عدة ولايات، وكانت له مكانة عالية وحظوة كبيرة في الدولة العباسية.

ولم يكد الأمير الحمداني يتم العقد الأول من حياته حتى أسلمة أبوه إلى العلماء والحكماء يدربونه ويلقنونه الحكمة ومختلف صنوف العلم، وقد كان ذكاؤه الحاد خير مشجع له بأن يجني الكثير من شتى هذه العلوم.

وكان من أساتذته ابن خالويه الذي يعد مؤدب أمراء بني حمدان، وكان من أساتذته أيضاً أبو ذر الذي ذكره الثعالبي ونعته بأنه أستاذ سيف الدولة وذكر له شعراً([2]).

ويرى الدكتور طه حسين أن ثقافة سيف الدولة ثقافة واسعة عميقة فقد نشأ في بيئة هيأته لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت مسيطرة في بغداد. وأخذت أسرته بأسباب الترف وعاشت عيشة المتسلطين ولم تترك أبناءها بغير تربية ولا تثقيف وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين وعلمتهم مالم يكن بد من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال ([3]). ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون سيف الدولة ملماً شيئاً باليونانية وثقافتها معللاً ذلك باتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان وشؤونها([4]).

ويرى أحمد أمين أن سيف الدولة كان يعرف غير العربية مستدلا بما ذكره ابن خلكان في ترجمة الفارابي من أنه كان لسيف الدولة مماليك وكان له معهم لسان خاص يحدثهم به[(5)].

وينشأ سيف الدولة نشأة أدبية محباً للأدب والشعر والأدباء والشعراء. وكما نشأ أدبياً فإنه كذلك نشأ فارساً محباً للفروسية ذائداً عن قومه منذ صباه.

وينشأ وسط الزعازع العصيبة التي تعصف بالدولة العباسية فيقدم ولا يحجم ويدرع للأهوال بنفس واثقة وفؤاد جياش وعزيمة صادقة. وما يكاد الأمير يبلغ منتصف العقد الثاني من عمره حتى يفجع بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر له. فيزداد حنقا ووثوقاً وإيماناً بالله. وقد طبع هذا التاريخ الدامي لأسرته نفسه منذ نشأتها بطابع البطولة والشجاعة التي أظلت فيما بعد شعراء الندوة السيفية في حلب بظلال الفروسية والقوة.

كان سيف الدولة قبل انطلاقة إلى حلب الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة أمير الموصل فأظهر قدرة وكفاءة وشجاعة في قيادة الجيوش عندما غزا الروم في سنة 326ه وأنزل بهم هزيمة كبيرة وأسر سبعين بطريكا وأخذ سرير الدمستق وكرسيه[(6)]

وفي سنة 330 يسير الأمير لنجدة الخليفة العباسي ولقاء البريدي فيهزمه ويأسر جماعة من غلمانه ويكتب إليه الخليفة رسالة تمجيد وتعظيم لبطولته.

ويرى بعض المؤرخين أن هذه المعركة وما وليها من نصر كانت السبب الرئيسي لإنعام الخليفة عليه بلقب سيف الدولة[7].

وسار الأمير الحمداني صوب حلب بعد أن كاتبه الكلابيون وبعثوا إليه كي يسلموه حلب نتيجة لاختلافاتهم فسار إلها ودخلها في ربيع الأول سنة 333هـ وكان قد طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية فقال له "الشام أمامك، وما فيه أحد يمنعك منه"[8].

ولعل سيف الدولة اختار حلب لتكون عاصمة ملكه ليبتعد عن آتون المنازعات الداخلية التي كانت تعصف ريحها في بغداد ليزج نفسه في حرب تعلي من شأن الوطن. لقد اختار حلب وهو يدرك أنه سيخوض في سبيلها عشرات المعارك الدامية مع الروم.

وبعد أن دخل سيف الدولة حلب مد سلطانه إلى شمالي سورية وأقام الدعوة فيها للمستكفي الخليفة العباسي ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه.

أخذ سيف الدولة في توطيد أركان ملكه وتحويل دولته إلى سد منيع استطاع الوقوف أمام الخطر البيزنطي. وقد وقف الفتى الحمداني عشرين عاماً شجى في حلق الدولة الرومانية ونار الحرب لا تخمد جذوتها ذياداً عن ديار الإسلام. وقد روت كتب التاريخ أنه غزاها ما يزيد على أربعين غزوة وكان النجاح حليفه في معظمها.

ولقد ذاع اسم الأمير الحمداني في العالم الإسلامي آنذاك لا على أنه حاكم حلب فحسب بل على أنه البطل المجاهد ضد الروم. وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوى خصم وأعظم بطل وقف أمام الجيوش البيزنطية[9].

ولقد قضى الأمير المجاهد نحبه سنة 356هـ. وقد نقل إلى ميافارقين ودفن في مقبرة أمه داخل المدينة[10].

تشجيعه للشعراء والأدباء:

كان الأمير الحمداني بالإضافة لشجاعته وبطولته راعياً للأدب والأدباء والشعر والشعراء والعلم والعلماء. وكانت ندوته التي يقيمها في فترات السلم حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة الذين يقصدونه من مختلف ديار الإسلام. وكانوا يلقون منه العناية والرعاية مما يدفعهم إلى تجويد نتاجهم الأدبي والعلمي.

ومما ساعد على تقدير الشعر وتكريم الشعراء أن الأمير كان على جانب عظيم من الثقافة والبصر بمواطن الجمال والقدرة على تمييز الخبيث من الطيب.

وكان الأمير الحمداني يمتاز بذوق أدبي بالغ جعل في قدرته المفاضلة بين الشعراء والأدباء بلغة الناقد المتفحص. وبسبب هذه الروح التي بثها الأمير الحمداني سمقت شجرة الشعر الفينانة وأينعت ثماره وامتدت أغصانه. وكثر الشعراء الوافدون وتضاعف عددهم فكان بلاط الأمير ملتقى الشعراء ومنتدى الأدباء ومنهم بالإضافة إلى المتنبي أبي الطيب من الشعراء الفحول أبو العباس النامي والصنوبري وعلي بن عبدالله الناشئ والسري الرفاء وأبو الفرج البغاء وأبو الفرج الوأواء وأبو الفتح كشاجم وأبو نصر بن نباتة السعدي وأبو العباس الصفري والخالديان وأبو القاسم الشيظمي وغيرهم.

ولقد عادت جهود الأمير على الأدب باليمن والبركة فبرز الشعراء في رحابه وبزوا أقرانهم وفاقوا أمثالهم وهذا هو الثعالبي يقول: "والسبب في تبريز القوم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء وهم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم وبالجمع بين أدوات السيف والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل، ولذا انبعثت قرائحهم في الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا[11].

ولقد كان جود الأمير وعطاؤه عاملاً له أهمية كبيرة في تلك النهضة الشعرية التي شهدتها حلب، ولقد ذاع صيت سيف الدولة بجوده وكرمه حتى أنشأ بديع الزمان الهمذاني مقامة سماها "المقامة الحمدانية" صوّر فيها ما كان يجري في مجلس الأمير حيث عُرض عليه فرس أصيل لحظته الجماعة فقال: -أيكم أحسن صنعته جعلته صلته فكل جهد جهده وبذل ما عنده[12].

كما أن ثقافة الأمير وتذوقه للأدب ونقده كان له دور مهم في ذلك الإشعاع الفكري والأدبي، ويجب ألاّ يأخذنا العجب مما يروى عن سيف الدولة في هذا الشأن فقد كان كما اتضح لنا سابقاً – صاحب ثقافة واسعة عميقة ولقد هيأت له بيئته الخاصة التي نشأ فيها حياة مثقفة لها حظ من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت مسيطرة في بغداد.

وتظهر ثقافته في أحاديثه ومحاوراته ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن وقدرته على التمييز الدقيق فيما يقال في مجلسه ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء وفي أن تتفرع فيها الثقافات فتزهر الفلسفة إلى جانب العلم وتزدان علوم الدين إلى جانب علم اللغة والأدب[13].

وحسبنا أن نقول إن هذا الجو الذي أوجده سيف الدولة في حلب وهذا الاهتمام الكبير الذي أبداه بالشعر والشعراء شجع كل من كان عنده قدرة فنية على قول الشعر والإجادة فيه، فبائع البطيخ وهو الوأواء الدمشقي أصبح شاعراً كبيراً وكشاجم الذي قيل أنه كان طباخ سيف الدولة أصبح مع هذا شاعراً ظريفاً وكذلك قيما المكتبة وهما الخالديان صارا شاعرين مشهورين.

ولقد كثر الشعراء في عهد سيف الدولة كثرة نادرة حتى أن الثعالبي يقول لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر[14].

ولقد كانت ميزات سيف الدولة مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة فهو عربي من تغلب يعتز بنسبه ومجد بيته وفيه الطباع العربية التي اشتهرت في البيوتات الكبيرة فكان يطمح كل الطموح لحسن الأحدوثة ولذلك يهمه أن يكون حوله أعاظم الشعراء يشيدون بذكره ويسير شعرهم في الآفاق مدحاً فيه، ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء وفخر ونصرة للضعيف ومعونة للبائس والفقير وكان يرى المجد والمروءة في الزهادة في المال معتزاً بالشرف مغدقاً على الأصدقاء والشعراء[15].

ولقد كان الأمير الحمداني مقصد الشعراء والأدباء حيث ينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته وكان قد أمر بضرب دنانير خاصة للصلات وزن كل دينار عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالاً[16].

نحن بجود الأمير في حرم ... نرتع بين السّعود والنعمِ

أبدع من هذه الدنانير لم ... يجر قديماً في خاطر الكرمِ

فقد غدت باسمه وصورته ... في دهرنا عوذةً من العدمِ

فزاده عشرة أخرى. والأمثلة كثيرة على ما لقي الشعراء في بلاط سيف الدولة من رعاية فائقة وعناية بالغة، ولهذا لا عجب أن تكون حلب في عهده ملتقى الشعراء من الشرق والغرب.

ومن تلك الأمثلة أن أبا فراس كان يوميا بين يدية في نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولي، وليس له إلاّ سيدي "يعني أبا فراس":

لك جسمي تُعله ... فدمي لم تحله

لك من قلبي المكا ... نُ فلم تحله

فارتجل أبو فراس قوله:

أنا إن كنتُ مالكاً ... فليَ الأمرُ كُلهُ

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بمنبج تُغلَ ألفي دينار[17].

وحدث أبو الحسن علي بن محمد الهمذاني قال: كنت واقفاً بين السماطين بين يدي سيف الدولة بحلب والشعراء ينشدونه فتقدم إليه أعرابي رثّ الهيئة فاستأذن الحجّاب في الإنشاد فأذنوا له. فأنشد:

أنت عليّ وهذه حلبُ ... قد نفد الزادُ وانتهى الطلبُ

بهذه تفخرُ البلادُ وبال ... أمير تزهى على الورى العربُ

وعبدك الدهر قد أضرَ بنا إليَك من جور عبدَك الهرب

فقال سيف الدولة: أحسنت والله أنت!! وأمر له بمائتي دينار[18].

ولقد كان للمتنبي منزلة خاصة لدى الأمير ولقي في ذراه كرماً وافراً وعطاءً كبيراً فقد كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار إزاء ثلاث قصائد يُنشدها إياهُ كل عام[19]، وقد أعطى سيف الدولة أبا الطيب المتنبي ضيعة بالمعرّة اسمها صف إقطاعاً له[20].

وقد روى ابن حجةَ الحموي في ثمرات الأوراق "أن سيف الدولة انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل رجل شامي فأنشده:

وكانوا كفاروسوسوا خلف حائط وكنت كسنور عليهم تسقفا

فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببكائه فرقَ له وأمر بردّه وقال له: مالك تبكي؟ قال: قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملي بكيت، فقال له سيف الدولة ويلك فمن يكونُ له مثل هذا النثر يكون له مثل ذلك النظم. وكم كنت أملتَ؟ قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف[21].

وذكر أنه حُمِلَ إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بغلُ بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء الشاعر بالأحصى فأخذ ما عليه من المال وأطلقه ثم دخل حلب ودخل على سيف الدولة وأنشده قصيدة له يقول فيها:

ومن ظنَ أن الرزق يأتي بحيلة فقد كذبتهُ نفسهُ وهو آثمُ

يفوتُ الغنى من لا ينام عن السَرى وآخرُ يأتي رزقه وهو نائمُ

ودخل عليه شاعر وطرح من كمه كيساً فارغاً واستأذنه في إنشاده فأذن له فأنشده قصيده أولها:

حِباؤَك مُعتادٌ وأمرُك نافذٌ وعبدَك مُحتاجٌ إلى ألفِ درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً وأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه[22].

ولقد ذاع صيت عطائه الواسع في سائر الأقطار الإسلامية وفي كل نادٍ ومحفل، مما كان يدفع بعض الشعراء أن يمدحوه بُغية النوال دون أن يقصدوا احلب.

ولم يقتصر مدح سيف الدولة على الشعراء بل إن بعض الشاعرات هزجن بكرمه وصدحن بأريحيته. فلقد روي عن أبي علي التنوخي –قال أخبرني ابن عبدالله السلامي أنه كانت له ابنة خال بغدادية مخزومية تقول الشعر[23].

وقال أنشدتني لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة[24].

لولا حذاري من أن ألام على ... عتابِ يومٍ منهُ وإعتابه

لسَرتُ والليل هودجي وذبابُ الـ ... سيفِ في نحره إلى بابه

وهكذا نلحظ أن جانباً آخر غير الحرب لامعاً في شخصية الأمير الحمداني وهو نزعته الأدبية التي حفزته إلى العمل على نهضة الشعر والعلوم والآداب، ولقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الفضل الذي أحرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية.

ويقول بروكلمان: ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول ليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه على المعلوم والفنون ورعايته لها[25].

ولقد أخذ بعض الباحثين على سيف الدولة تغاليه في الإفضال على الشعراء والأدباء فقد قال الأستاذ محمد كرد علي: كان رحمه الله يجوز أخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والأدباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا[26].

وقال في محاضرة ألقاها في نادي الشهباء عام 1923 "إن ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرَم ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل أن تجبى هذه الأموال من الفقراء والأغنياء لتصرف في مصالح الأمة ثم يأخذه شاعر واحد".

وهذا القول صحيح إذا قسناهُ بالمقياس المتداول في عصرنا ولكن عصر سيف الدولة يختلف عما نحن فيه كل الاختلاف فليس الغرض فيما نعتقد من هبات الأمير وعطاياه الكثيرة للشعراء مجرد المدح بل كانت ألسنة

الشعراء تؤدي في ذلك الوقت ما تؤديه اليوم أجهزة الإعلام من الإذاعة المسموعة والجرائد المرئية التي تستهلك معظم ميزانيات الدول.

فكانت وظيفة الشعراء أن ينشروا فضائل من تقلد زمام الحكم من سياسة وحسن تدبير وإشفاق على الرعية وقهر للأعداء، ولذلك كانت تجري عليهم الهبات والصلات والجوائز. وبعبارة أخرى لقد كان الشعراء وسيلة دعائية للأمير الحمداني يتغنون بانتصاراته ويسّوغون هزائمه ويدعون الناس إلى نصرته.

وخلاصة القول إن بلاط الأمير الحمداني ضم أعظم شعراء العربية من مختلف الأوطان وكانوا يتسابقون في مدح الأمير، وليس من شك في أن شخصيته هي التي جمعت هذا العدد الفريد من الشعراء في صعيد واحد فما أن قضى الأمير نحبه حتى تفرق هذا الجمع وانفرط هذا العقد وانتشر هؤلاء الشعراء يضربون في بقاع الأرض شرقاً وغرباً[27].

وبالإضافة إلى كرم الأمير وسخائه كان ذوقه الفني وتقديره للشعر الجيد يدفع الشعراء لقصد بلاطه وعرض فنهم عليه.

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني الذي يقول فيه المتنبي:

عليمٌ بأسرارِ الدّياناتِ واللغى ... لهُ خطّراتٌ تفضحُ الناسَ والكُتبا

كما أن حب المنافسة كان يحفز الشعراء إلى أن يقصدوا حلب حاضرة الأمير التي كانت تموج بالشعراء والأدباء والعلماء وذلك من أجل الحصول على التفوق والغلبة، ويضاف إلى هذا أن سيف الدولة نفسه بطلٌ عظيم وفارس شجاع ومجاهد ذاد عن حمى الإسلام والدين فكان كل هذا باعثاً للشعراء إلى التغني بانتصاراته وبطولاته والحصول على عطاياه وهباته. ولذلك كثر الشعراء في بلاط سيف الدولة كثرة نادرة فلم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر[28].

شـــعره:

كان سيف الدولة أديباً شاعراً يحب جيد الشعر ويطرب لسماعه ويروى له شعر جميل يدل على شاعرية موهوبة ومن محاسن شعره وصفه قوس قزح وقد أبدع فيه[29].

وساقٍ صبيحٍ للصبوحِ دعوتُهُ ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض

يطوفُ بكاسات العقارِ كأنجمٍ ... فمن بين منقض علينا ومنفضْ

وقد نَشرَت أيدي الجنوبِ مطارفاً ... على الجو وكنا والحواشي على الأرض

يطرزها قوس الغمام بأصفرٍ ... على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مبيض

كأذيالِ خودٍ أقبلت في غلائلٍ ... مصبغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ

ومن شعره الجميل في صباه قوله[30]:

أقبلُهُ على جزعٍ ... كشُربِ الطائرِ الفزعِ

رأى ماءً فأطمعه ... وخاف عواقب الطمع

وصادفَ فرصةً فدنا ... ولم يلتذ بالجزع

وأغلب المأثور من شعره غزل وسبب ذلك فيما أعتقد راجع لحبه لفتاة بيزنطية سابية الحسن والجّمال، وقد ذكرها الثعالبي فقال: "ويحكى أنه كانت لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلاّ بها، ويشفق من الريح الهابة عليها، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه وأزمعن إيقاع مكروه بها من سم أو غيره. وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها وقال[31].

راقبتني العيونُ فيكِ فأشفق ... تُ ولم أخلُ قطّ من إشفاقِ

ورأيت العزول يحسدني فيـ ... ـك مجداً يا أنفسَ الأعلاقِ

فتمنيتُ أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الوُد باقي

رُبَّ هجرٍ يكون من خوفِ هجرِ وفراق يكون خوفَ فراقِ

ويقول ابن خلكان إنه رأى أن هذه الأبيات المذكورة بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري ولا يرجح نسبتها لأحد منهما[32].

وله غزل رقيق أيضاً كقوله[33].

تجنّى علي الذنبَ والذنبُ ذنبه وعاتبني ظُلماً وفي شقّه العُتبُ

وأعرضَ لما صارَ قلبي بكفه فهلا جفاني حينَ كانَ لي القلبُ

إذا برمَ المولى بخدمة عبده تجنّى له ذنباً وإن لم يكن ذنبُ

ومن بديع غزله قوله[34].

قد جرى في دمعهِ دَمُهُ فإلى كم أنتَ تظلُمهُ؟

رُدَّ عنهُ الطرفَ منك فقد جرحتهُ منك أسهُمُهُ

كيف يستطيع التجلدَ من خطراتِ الوهم تؤلمُهُ؟

ومن بديع خياله قوله[35].

كأنما النارُ والرمادُ معاً وضوؤُها في ظلامه يُحجبُ

وجنةٌ عذراءُ مسها خجلٌ فاستترت تحت عنبرٍ أشهب

وقد قال في أخيه ناصر الدولة عن وحشة جرت بينهما، وقد كان ناصر الدولة شديداً عليه لأنه يخشاه ويتوجس منازعته في إمارة الموصل[36]:

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرقٌ

ولم يُك بي عنها نكول وإنما تجافيت عن حقي فتم لك الحق

ولا بد لي من أن أكون مصلياً[37] إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

وقد أنكر بعض المؤرخين جل الأشعار المنسوبة إلى سيف الدولة. قال ابن النديم فينسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة لا يصلح منها له غير بيتين، ذكر أبو القاسم الحسن بن علي المغربي كاتبه – وهو جد الوزير أبي القاسم المغربي – أنهما لسيف الدولة – ولم يعرف له غيرهما. وكتب بهما إلى أخيه ناصر الدولة وقد مديده على شيء من بلاده المجاورة له من ديار بكر وكانت في يد أخيه.

لستُ أجفو إذا جفيتَ ولا أت ... رُك حقاً علي في كل حال

إنما أنت والدٌ والأب الجافي ... يجازي بالصبر والاحتمالِ

ونرى أن سيف الدولة كان شاعراً رقيقاً لا يخلو شعره من عاطفة وحساسية وأغلب شعره الذي وصلنا يكاد لا يتعدى ما رواه الثعالبي في اليتيمة وجلّه في الغزل ولم يؤثر لسيف الدولة ديوان. وعلى ذلك يعد شاعراً مقلاً، وإن كان الثعالبي في حديثه عن شعره يعنون له بقوله: "ملح من شعر سيف الدولة" وهذا قد يدل على أن له شعراً كثيراً غير ما ذكره صاحب اليتيمة.

نقده:

وبالإضافة إلى شاعرية سيف الدولة عرف عنه أنه كان صاحب نظرات نفاذة ومعايير فنية في النقد وكان ذا باع طويل في العلم والأدب وذا مقدرة كبيرة على إدارة المجالس الأدبية وتوجيه النقد الصائب. ولقد كان مجلسه في حلب قليل النظير فالشعراء والأدباء في مجلسه كانوا يثيرون الموضوعات المتنوعة ويسهم فيها سيف الدولة ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ويجزل العطاء لمن أجاد، فحيناً يتذاكرون الشعر القديم وتارة يسألهم إجازة شعر ومرة يناقشهم في مسألة نحوية او مسألة لغوية حسبما اتفق[38].

استنشد سيف الدولة يوماً أبا الطيب المتنبي قصيدته التي أولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكان معجباً بها كثير الاستعادة لها فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف　　كأنَك في جفن الرَدى وهو نائمُ

تمرُ بَك الأبـطالُ كلـمى هزيمةً　　ووجهَك وضـاحٌ وثغرَك باسمُ

فقال الأمير:

قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقدَ على امرئ القيس بيتاه:

كـأنّي لم أركـب جـواداً للـذّة　　ولم أتبطن كاعباً ذاتَ خلخالِ

ولم أسـبأ الزق الروي ولـم أقل　　لخيلي كري كرة بعد إجـفالِ

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين وكان ينبغي لأمرئ القيس أن يقوم:

كأنّي لم أركب جواداً ولم أقل　　لخيلي كـري كـرة بعد إجـفالِ

ولم أسـبأ الزق الروي للـذةٍ　　ولم أتبطن كـاعباً ذاتَ خـلخالِ

ولك أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف　　ووجهـك وضـاح وثغرك باسمٌ

تمرُ بك الأبطالُ كلـمى هزيـمة　　كأنك في جفن الردى وهو نـائمٌ

فقال : أيد الله مولانا أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ أمرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزّاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة وشراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت اتبعته بذكر الردى ليجانسه ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية: فقلت ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها.

فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار [39].

وهذا يدل على أن سيف الدولة قد اقتنع بحسن تخريج المتنبي وأن الأمير يتمتع بذوق فني رفيع.

وكان الأمير يعرف درجات الحسن في فن شعرائه وكان يميل إلى أبي العباس النامي ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي فقدمه عليه فغاظ ذلك أبا العباس وعاتب الأمير لماذا يفضل عليه المتنبي؟ فأمسك عن جوابه وعندما ألحَّ عليه مطالبه بالجواب قال لأنك لا تحسن أن تقول كقوله:

يعودُ من كل فتح غير مفتخرٍ وقد أغذّ إليه غيرَ مُحتفِلِ

وكان السّري الرفاء يحسُد المتنبي على منزلته الرفيعة عند الأمير فطلب منه قصيدة من غرر قصائد المتنبي ليعارضها له ويتحقق أنه أركب المتنبي في غير سرجه فقال له سيف الدولة عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها:

لعينَك ما يلقى الفُؤادُ وما لقي وللحُب ما لم يبقَ منهُ وما بقي

قال السريّ: فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة، فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكني رأيته يقول في آخرها عن ممدوحة:

إذا شاءَ أن يلهو بلحية أحمقٍ أراه غُباري ثمَّ قالَ لهُ الحقِ

فقلت: والله ما شاء إلا إلى هذا وأحجمت عن معارضة القصيدة[40].

ومن مظاهر حبه للأدب سعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كثيراً ما كان يتمثل بأبيات قديمة وتعجبه أبيات يردها أو معنى يستجيده فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها فمرة مثلاً ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف وهما:

أمنّي تخاف انتشار الحديث وحظي في ستره أوفرُ

ولولم أصنهُ لبقيا عليـ ـك نظرتُ لنفسي كما تنظرُ

واستحسن المعنى فأرسل رسولاً مستعجلاً لأبي الطلب المتنبي ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتهما فقال المتنبي أبياته المشهورة[41].

رضاك رضاي الذي أؤثرُ وسرُّك سرّي فما أُظهِرُ

وجاء في كتاب الكنايات للجرجاني: سمعت الطبري يقول كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بحلب فدخل عليه ابن عم له فاستبطأه الأمير وقال له: أين كنت اليوم وبما اشتغلت فقال له: أيد الله مولانا حلقت رأسي وأصلحت شعري وقلمت أظافري فقال له: لو قلت أخذت من أطرافي لكان أوجز وأبلغ[42].

وقال ابن خالويه: دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لي: أقعد، ولم يقل أجلس فتبينت بذلك أعلاقه بأهل الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم أقعد وللنائم والساجد أجلس[43].

ومما يدل على ثقافة سيف الدولة الواسعة وعنايته الكبيرة بالأدب وتوجيهاته النقدية الصائبة أنه كتب إلى أبي عبدالله الحسين بن خالويه يسأل عن دمشق هل يقال فيها دمشقةٌ أم لا؟ فأجابه دمشق اسم هذه المدينة ليست عربية فيما ذكر ابن دريد، إنما هي معربة ولا يقال إلا بغيرها. فأما الدمشقية فالسرعة في المشي يقال دمشق يُدَمِشُ دمشقةً ودمشاقاً إذا أسرع—وكل سريع دَمشقَ.

فأعاد سيف الدولة الرقعة وقد وقع فيها: مربنا في كتاب قال عبد الرحمن بن الجمحي وهو بعسكر يزيد بن أبي سفيان عند حصارهم دمشق:

أبلغ أبا سفيانِ عنّا بأننا ... على خير حالٍ كان جيشٌ يكونها

وأنا على باب دمشقة نرتمي ... وقد حان من باب دمشقة حينها

وفي الرقعة أيضاً أن الناقة السريعة يقال لها دمشقٌ والمرأة السريعة اليد في العمل.

فكتب إليه ابن خالويه: هذا جائز للشاعر ولا سيما إذا يقصدُ بدمشقَ إلى مدينة فزادها هاء تأكيداً للتأنيث، كما أن يقال عقرباً مؤنثة بغير علامة التأنيث والعُقربان[44] ذكرها. فقالوا عقربةٌ تأكيداً، فكذلك دمشقُ ودمشقة.

فبعث إليه سيف الدولة يستحضره فلما مثلَ بين يديه قال: أيها الأمير رُبَّ عِلمٍ كنتَ سببه وقد استفدتُ دمشقةَ، إلا أنه في النحو كما ذكرت والعرب تزيد المذكّر بياناً كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم " ابن لبون ذكر " – وتزيد المؤنث تأكيداً مثل "نعجة" أنثى" وذكر كلاماً غيره[45].

إن هذه الأمثلة التي أوردناها تدل دلالةً بينةً واضحة على شاعرية سيف الدولة وتذوقه للأدب وقدرته على النقد والتمييز. فلذلك لا عجب أن يكثر الشعراء في بلاطه وأن يكون رحابه منتدى الأدباء والعلماء، فوفد غلى حلب الشعراء من شتى الأمصار والأصقاع يقصدون الأمير الفارس والفتى الشاعر ليستظلوا بظله ويعيشوا في كنفه.

الهوامش

[1] ميافارقين: مدينة جليلة عظيمة الخطر عليها سور من حجارة وخندق عميق، والأشجار والأنهار محتفة بها. صورة الأرض بن حوقل ص:202.

[2] اليتيمة 1:85

[3] مع المتنبي،:238

[4] المصدر السابق، ص:184

[5] فيض الخاطر، أحمد أمين:4:75

[6] نخبة تاريخية- كانار–ص:73-74.

[7] الكامل في التاريخ:8:149.

[8] زبدة الحلب:1:112.

[9] الدولة البيزنطية، الباز العريني. ص44.

[10] وفيات الأيمان:2:99.

[11] يتيمة الدهر (1/12–13)

[12] مقامات الهمذاني ص (151).

[13] مع المتنبي ص (183).

[14] اليتيمة 1:11.

[15] ظهر الاسلام-أحمد أمين ص (179).

[16] اليتيمة:1:20.

[17] اليتيمة (21/1).

[18] المصدر السابق (20/1).

[19] الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص (46).

[20] إعلام النبلاء (288/1).

[21] نخبة تاريخية: ص (350).

[22] معجم البلدان: (114/1).

[23] عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية أم الحسن بن محمد عبدالله السلامي الشاعر كانت شاعرة فصيحة مدحت عضد الدولة ببغداد وتوفيت سنة 367.

[24] نشوار المحاضرة–التنوخي (270/5).

[25] تاريخ الشعوب الاسلامية (91/2).

[26] القديم والحديث–محمد كرد علي ص (177).

[27] زبدة الحلب (123/1).

[28] اليتيمة (11/1).

[29] اليتيمة (31/1).

[30] المصدر السابق:1:32.
[31] وفيات الاعيان(402/2).
[32] اليتيمة(32/1–33).
[33] المرجع السابق(33/1).
[34] المرجع السابق(34/1).
[35] اليتيمة(33/1).
[36] المصلي:من الخيل الذي يتلو السابق في الحلبة.
[37] زبدة الحلب(152/1).
[38] فيض الخاطر(76/4).
[39] اليتيمة(21/1–22).
[40] خزانة الأدب–ابن حجة، ص:231.
[41] فيض الخاطر،4:75.
[42] أعلام النبلاء، ص:285.
[43] نخبه تاريخية ص286.
[44] العقرب واحدة العقارب من الهوام يكون للذكر والأنثى بلفظ واحد والغالب عليه التأنيث، وقد يقال للأنثى عقربة وعقرباء ممدوداً غير معروف–لسان العرب(115/2).
[45] الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،1:15–16.

المصادر والمراجع

1- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، عز الدين أبو عبدالله بن شداد، تحقيق دومينيك سورويل، دمشق، 1953م.

2- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الطباخ، ط1، 1923م.

3- تاريخ الشعوب بالإسلامية، كارل بروكلمان، ط4، بيروت، 1965م.

4- خزانة الأدب، ابن حجة الحموي، مصر، 1291هـ.

5- الدولة البيزنطية، الباز العريني، دار النهضة العربية، مصر 1965م.

6- زبدة الحلب في تاريخ حلب – ابن العديم، تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1951م.

7- الصبح المبني عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، تحقيق السقا ومحمد شتا وعبده زيادة، دار المعارف، مصر، 1963م.

8- صورة الأرض، لابن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

9- ظهر الإسلام، أحمد أمين، ط3، مكتبة النهضة العربية، 1964م.

10- العبر في خبر من عبر، الحافظ الذهبي، تحقيق فؤاد سعيد، الكويت 1961م.

11- فيض الخاطر، أحمد أمين، ط5، مكتبة النهضة المصري، 1969م.

12- القديم والحديث، محمد كرد علي، ط1، 1925م.

13- مقامات بديع الزمان الهمذاني بيروت.

14- الكامل في التاريخ، ابن الأثير – تصحيح الشيخ عبد الوهاب النجار.

15- لسان العرب، ط1، المطبعة الأميرية، بولاق، 1301ه.

16- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

17- مع المتنبي - طه حسين، ط10، دار المعارف، مصر.

18- نخبه أدبية وتاريخية ماريوس كانار، طبع الجزائر، 1934م.

19- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، أبو علي المحسن بن علي التنوخي، طبعة هندية، 1921م.

20- وفيات الأعيان – ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس.

21- يتيمة الدهر – الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط2، 1973م.